ديناميات المجتمعات التقليدية لمجتمع الصيادة
– قرية الصيادين ب "شماعلة" إقليم شفشاون –مقاربة أنثروبولوجية–

الطالب الباحث: عبد العزيز الطويل
بإشراف الدكتور الأستاذ: عبد الرحيم العطري
ماستر الأنثروبلوجيا والمجتمع والثقافات، جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المغرب

مستخلص

يتناول هذا المقال دراسة ميدانية أنثروبولوجية لمجتمع الصيادة التقليديين بقرية شماعلة، إقليم شفشاون، بالمغرب، من خلال تحليل النشاط البحري التقليدي وما يرتبط به من عادات وتنظيمات اجتماعية. ويسعى البحث إلى مقاربة هذا المجتمع في أبعاده القانونية والاقتصادية والثقافية، باعتبار الصيد البحري مدخلاً لفهم قضايا المجال المحلي، خاصة إشكالية التعايش بين التنظيمات التقليدية والأنماط الحديثة المستوردة.

كما يرصد المقال التحولات التي عرفها المجتمع المحلي بفعل عوامل داخلية وخارجية، مبرزاً أن المجتمعات التقليدية ليست ساكنة، بل دينامية تعرف تحولات مستمرة (en mutation)، دون أن تقود بالضرورة إلى تغيير بنيوي أو تحقيق التنمية. وينطلق البحث من اعتبار نشاط الصيد مجالاً مركباً تتداخل فيه عناصر الجماعة، والتراب، والثقافة.

وتنتظم الدراسة حول مقصدين رئيسيين: أولهما تحليل الصيرورات التحولية التي أعادت تشكيل المجتمع المحلي في سياق التحديث والعولمة، وثانيهما مقاربة انعكاسية تعود إلى الميدان باعتباره فضاءً للذاكرة والمعرفة، تجمع بين تجربة الباحث الشخصية ومتطلبات البحث العلمي.

Abstract

This article presents an anthropological field study of the traditional fishing community in the village of Shama'la, Chefchaouen Province, Morocco. It examines traditional maritime activities and the social practices associated with them through a multidimensional approach that encompasses legal, economic, and cultural aspects. Artisanal fishing is considered a key analytical entry point for understanding local territorial issues, particularly the coexistence between traditional social organizations and imported modern institutional frameworks.

The study also documents the transformations experienced by the local community as a result of internal and external factors, highlighting that traditional societies are not static but dynamic and constantly evolving (en mutation), although such transformations do not necessarily lead to structural change or sustainable development. Fishing activity is approached as a complex field in which community, territory, and culture intersect.

The research is structured around two main objectives: first, to analyze the multidimensional processes of transformation that have reshaped the local community under the influence of modernization and globalization; and second, to adopt a reflexive perspective that revisits the field as a space of memory and knowledge, combining the researcher's personal experience with the demands of scientific inquiry.

الكلمات المفتاحية: الدينامية، الثقافة، الصيد البحري، قرية الصيادين، المجتمعات التقليدي.

تمهيد

ينبغي التأكيد أن منطقة البحث جماعة "امتيوة" والريف عموما امتد صيته في مستهل القرن العشرين بشكل كبير وذلك راجع للتحولات والديناميات التي مست هذه المجتمعات سواء على المستوى الداخلي من نزوحات وهجرات داخلية أعادت تشكيل المعطيات المورفودينامية، تعرض المنطقة للاستعمارين الاسباني والفرنسي خلق وضعية استعمارية جديدة هاذين العاملين قوضا الحياة التقليدية، المنطقة اصبحت محط اهتمام كبير ليس بين المغاربة فحسب ولكن حتى على المستويين العربي والدولي ومرد ذلك بطبيعة الحال يرجع الى الصدى الواسع الذي خلفته المقاومة الريفية كنموذج لكفاح الشعوب ضد الاستعمارين الاسباني والفرنسي.

1-اشكالية الدراسة

تتناول إشكالية بحثنا سؤال التغير الاجتماعي والثقافي -في مجتمع البحث "قرية الصيادين" الشماعلة بجماعة "امتيوة"- مسألة التغير والتنمية سيشكلان بالنسبة لعملنا الميداني البرزخ الذي تتمحور حوله إشكاليتنا، وتتناسل عن هذه الإشكالية جملة من الأسئلة الفرعية:

الأسئلة الفرعية

1- ماهي طبيعة التحول والتغير الذي لحق مجتمعنا الدراسي؟

2- ماهي آثار انعكاسات الوضعية الاستعمارية وتدخل الفاعل الرسمي على مجتمعنا الدراسي؟

3- ماهي آفاق ومالات التنظيمات التقليدية في ظل التحولات الراهنة التي قوضت التقليدي بالمنطقة؟

4- كيف يحضر الاقتصادي والثقافي والقانوني في تقاليد البحرية منطقة البحث؟

2-أهمية الموضوع

تكتسي دراسة دينامية المجتمعات التقليدية أهمية بالغة في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، هذا النوع من المقاربات تبرز أهميته إتاحة الفرصة لفهم العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والقانونية التي تتميز بالتعقد والاستقرار رغم التقلبات التي قد تطرأ عليها، فقد يعتقد البعض أنها مجتمعات راكدة ومتكلسة لكن في واقع الأمر هذه المجتمعات هي الأخرى تعرف دينامية وتحول لكن هذا التحول لا يقود إلى التغيير بالضرورة.

تكمن أهمية دراستنا في تسليط الضوء على العوامل المساهمة في هذا التحول، من خلال الانشغال بموضوعات وقضايا ميزت كل حوض البحر الأبيض المتوسط وكذا مجتمعنا الدراسي من قبيل القبيلة، السلطة، القرابة، الأنساب، المقدس، الاعراف والتعاقدات...

أخيرا تبرز أهمية الدراسة من خلال عقدنا لمقارنة بين التنظيمات الحديثة بمجتمع البحث والتنظيمات التقليدية ومساءلتنا للتراث الثقافي البحري المحلي ومدى حفاظه على الذاكرة المحلية، من جهة ثانية التساؤل عن مآلات الثقافة التقليدية البحرية أمام موجة البرامج والاستراتيجيات الكاسحة لقطاع الصيد البحري التقليدي ونخص بالذكر مخطط "أليوتيس".

3-أهداف البحث

يسعى البحث التعرف على أشكال التنظيمات التقليدية بمجتمعنا الدراسي، سيتم التركيز على قرية الصيادين وعلى مميزاتها وخصائصها وكيفية اشتغالها والتحولات التي لحقتها، بالمقابل سنقف على بعض التنظيمات الحديثة التي تم استنباتها في المجال والمجتمع ومدى انعكاساتها على الصيد البحري التقليدي وعلى برامج ومخططات التنمية وأخيرا يهدف البحث إلى معرفة مآلات وآفاق التنظيمات التقليدية في ظل هذه التحولات وربط كل هذا الزخم بالتنمية في ابعادها المتعددة.

4–المنهجية والتقنيات المعتمدة في الدراسة

أ–المنهجية المعتمدة

حاولنا معالجة الموضوع من زوايا مختلفة:

الزاوية الأولى مرتبطة بالعمل الميداني في علاقته بالكتابة وبالنص الأنثروبولوجي من داخل الادبيات الأنثروبولوجيا، خصوصا وأن بحثنا في دينامية المجتمعات التقليدية منجز بحث سوسيو–انثربولوجي بالرغم من محاورته وانفتاحه على المقاربة التاريخية وحقول معرفية مجاورة أخرى من حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، لكن روح الميدان استطاع أن يميز عملنا البحثي بصفة خاصة، لذلك سنحاول الإجابة عن السؤال التالي: ما مدى حضور العمل الميداني في دراستنا؟

بحثنا استند على روح المقابلات والزيارات الميدانية المتكررة لمجتمع البحث.

الميدان شكل بالنسبة لنا الحيز الجغرافي ووحدة اجتماعية في مكان محدد هو "قرية الصيادين" بجماعة "امتيوة"، الميدان أيضا شكل بالنسبة لنا الحيز الذي يدور في فلكه النشاط الأنثروبولوجي (قرية الصيادين والمجتمع المحلي المتيوي) وهذه الفضاءات حاضنة لنشاطنا الأنثروبولوجي، وظفنا الملاحظة بالمشاركة والمقابلات الفردية والجماعية والأنشطة التأطيرية لمجتمع الصيادة بالمنطقة أثناء ترددنا المتكرر على مجتمع البحث.

وأخيرا عملنا ارتكز على الميدان وعلى البعد الامبريقي، اعتمدنا الوصف المكثف، حاولنا تبني المنهج المقارن بين التنظيمات الحديثة والتقليدية

ب–التقنية الموظفة

أملت علينا طبيعة الموضوع التي تبحث في الذهنيات وفي الأنماط الثقافية وفي حياة البحار بمنطقة البحث "بقرية الصيادين بشماعلة" إقليم شفشاون بشمال المغرب الاعتماد على الملاحظة بالمشاركة الأمر الذي استدعى منا المكوث في ميدان البحث والانغماس فيه ،وظفنا كذلك تقنية المقابلة الفردية و الجماعات البؤرية وكلا التقنيتين تستهدفا المعطيات ذات الطابع الكيفي، استثمرنا من جهة أخرى الموروث الشفهي المحلي حول الحياة الاجتماعية للبحار وعلاقته بباقي الفئات الاجتماعية الحرفية والفلاحية، محاولين إبراز طبيعة العلاقات البينية بين كل المهن والحرف التقليدية بالمنطقة، عملنا على توظيف كل هذه التقنيات بغية استيقاء المعطيات من الميدان.

5–مجتمع الدراسة

قرية الصيادين "بشماعلة" إقليم شفشاون جهة طنجة تطوان الحسيمة. القرية عبارة عن جبال ومنحدرات تنتهي إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط بأجراف ساحلية، الارتفاع فيها يقل كلما اتجهنا نحو البحر. إن الساكنة المحلية للجماعة –اعتمادا على روايتهم المتباينة التي استقيناها من خلال مكوتنا وترددنا المتكرر على مجتمع البحث – يختلفون حول انتماء قبيلة "امتيوة" والمقصود بها كلمة "الريف" أو البحر، المنطقة تعرف انشطة اقتصادية متنوعة زراعة، تربية المواشي، صيد بحري وسياحة جبلية وساحلية.

المبحث الأول: ديناميات التنظيمات التقليدية بمجتمع البحث وأنماطها

يكتسي الرجوع إلى ماضي التنظيمات التقليدية أهمية بالغة في التحليل خصوصا لما توفره هذه المقاربة من فهم عميق لمسار تطورها وتحولها عبر الزمن وعبرها يمكن فهم راهنية هذه التنظيمات واستشراف آفاقها، وهو منظور دينامي ينتقد طروحات وآراء التطوريين الذين يزعمون بأن المجتمعات التقليدية هي راكدة ومتكلسة ومن رواد هذا الاتجاه الأنثروبولوجي الدينامي نستحضر كل من "**جورج بلاندي George Blandy**" و"**نوربرت إلياس Norbert Elias**" اللذان بحثا في الازمنة البعيدة وفسرا وفهما على ضوئها الراهن.

إن اعتمادنا على المقاربة التاريخية واهتمامنا بالتاريخ الاجتماعي للمنطقة وتمثلات الناس حول حياتهم اليومية والانطلاق من روح الميدان جماعة البحارة بقرية الصيادين ب"شماعلة" دفعنا للتساؤل عن التنظيمات التقليدية التي ساهمت في تدبير الشأن المحلي والديني والتي لازالت حاضرة بالرغم من التغيرات التي لحقتها نتحدث هنا عن دور القبيلة كتنظيم فرض سلطته وقهرتيه على قطاع الصيد البحري التقليدي لعقود من الزمن ولا زال.

كان ملاذنا النبش في المتون السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والتاريخية وتحديدا كل من أعمال **غيروشي وجورج بلانديي وماكس فيبر** ،هذه المتون مكنتنا من تصنيف مجتمعنا الدراسي المحلي باعتباره مجتمعا تقليديا على اعتبار نوعية التضامنات السائدة فيه والتعاقدات والأعراف ونمط عيش السكان والاقتصادات السائدة التي تميل إلى التفتيت ونبذ التراكم ،هذه المجتمعات اغلب ساكنتها نزحوا من الجبل في اتجاه السواحل البحرية المتوسطية جزء مهم منهم امتهنوا الصيد التقليدي لكنهم حملوا معهم ثقافتهم الجبلية وفي الان نفسه مارسوا انشطتهم البحرية على قوارب تقليدية وانتظموا في قرى الصيادين وفي نقط التفريغ البعيدة عن المركز.

أ–القبيلة كتنظيم

إن موضوع "القبيلة" من بين المواضيع التي اهتم بها علماء الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا والتاريخ ....، وهذا التنظيم لازال يحتفظ بتوهجه وراهنيته، إذ تمت العودة اليه لاعتبارات متعددة منها الارتدادات القبلية في مجموعة من الدول كاليمن والسودان ... كذلك اقتناع الدول أخيرا أن التنمية عطلت في مجتمعاتهم لاعتبارات قبلية بالأساس، "هذا التنظيم الذي همشه الفكر القومي والتيار النقدي في الأنثروبولوجيا، فالأول اعتبر القبيلة تمثل عقبة في بناء الدولة الوطنية الحديثة بينما صنفها الثاني في خانة الظواهر المتجاوزة"[1].

يتشكل مجتمعنا الدراسي باعتباره مجتمعا تقليديا من فلاحين ومزارعين ورعاة، ولاعتبارات متعددة مرتبطة بنوعية الاستراتيجيات التنموية المعتمدة والتي في غالبيتها محكومة بهواجس ظرفية وأمنية، وجزء منها مرتبط بحتمية جغرافية فإن قوى الانتاج لم تتطور بشكل يسمح بوجود فائض يذكر، من جهة ثانية المنطقة مؤطرة داخل وحدات اجتماعية هي القبائل، هذا البناء الاجتماعي تقوم تقسيماته على اساس التضامن والتقاسم لذلك كانت تضعف وتخفت فيه الفوارق الطبقية، وكانت هذه الوحدات القبلية تتوفر على مؤسسات محلية منها مجلس الجماعة الذي يتم انتخاب أعضائه من بين شيوخ القرية وتقوم مهمته على رعاية الشؤون الداخلية كالسهر على الأمن، الدفاع والضرب على يد المجرمين.

لكن الملاحظ أن مجتمع البحث الموجود جغرافيا في الجزء الغربي، وكذلك الريف الشرقي والأوسط كلها مناطق عرفت باستقرار سكانها الذين تملكوا الأرض وثقافة الأرض والغابة على عكس القبائل في جنوب المغرب التي عرف سكانها بالرحل وأنصاف الرحل فهؤلاء رأسمالهم هو القطيع لذلك انصب اهتمامهم على تقوية أواصر القرابة للحفاظ على التماسك الاجتماعي لحماية قطيعهم والبحث عن الكلاء. وفي هذا السياق وعن علاقة الإنسان بالمجال أكد "**نوربرت الياس Norbert Elias**" "أن القبيلة لا تخرج عن نطاق كونها مؤسسات اجتماعية وتنظيما اجتماعيا تؤثر في الأفراد ويؤثرون فيها، وهذه العلاقة بين الأنا والحن في القبيلة تختلف عنها في المجتمعات المتحضرة"[2]

ب–القبيلة بمنطقة البحث ومفهوم النسق الانقسامي

عند دراسة المجتمعات بالريف المغربي نصطدم بمفهوم النظرية الانقسامية وهو أمر يدفعنا لطرح السؤال هل المجتمعات الجبلية بالريف الغربي مجتمعات انقسامية؟

قبل أن نتصدى لإبراز قصور هذا المفهوم في إدراك طبيعة مجتمعنا الدراسي بالريف الغربي وعموم الريف المغربي وقبائل جبالة وغمارة، نرى أنه من المفيد الإشارة إلى خطوط المقاربة الانقسامية.

أولى جذور تطبيق هذه المقاربة كانت مع " **ايميل دوركايم Émile Durkheim**" حيث طبقها على منطقة القبايل بشمال افريقيا، هذا المفهوم عرف رواجا كبيرا مع **الانجلوساكسونيين** من خلال أعمال "**إرنست كلنير Ernest Kellner**"، "**دافيد هارت David Hart**"، "**وتربوري Waterbury**"، ... من أهم سمات المجتمع الانقسامي انه يتكون من مجموعات متشابكة بعضها ببعض وترتبط فيما بينها بحبل النسب الأبوي، حيث يدعي مجموع الأجزاء انتسابهم لجد مشترك، ويمكن أن نرمز إلى هذه الأجزاء بواسطة الدوائر المتحدة المركز تتطابق أكبرها على الوحدة القبلية، وأصغرها على الكانون ثم الفرد. تقوم الأجزاء بوظائف متباينة إلا انها تبقى مع ذلك متشابهة وخاضعة لنفس التنظيم، ومن مميزات البنية الانقسامية أن الجماعة الاجتماعية تكون متضادة في مستوى أدنى وتتحد اتحادا آليا في المستوى الأعلى. المجتمعات الانقسامية تجهل التراتب الاجتماعي، تكون فيها سلطة الزعماء ضعيفة إن لم نقل منعدمة، انها أهم سمات المجتمعات الانقسامية كما طبقها "**ارنست كلنير Ernest Kellner**" على مجتمع قبائل الاطلس الكبير الأوسط في كتابه "**صلحاء الأطلس Saints de l'Atlas**". السؤال الذي يطرح هل مثل هذه التحليلات باستطاعتها إعطاء صورة واضحة وحقيقية عن المجتمعات الريفية الجبلية المستقرة؟

الواقع إن هذه المقاربة لا يمكنها أن تنطبق على هذه المجتمعات المستقرة لعدة اعتبارات نذكر من بينها:

أولا: طبيعة العلاقة بين القبائل بالمنطقة والسلطة المركزية هي على الدوام كانت ولو بشكل متقطع علاقة ولاء، والمقاربة الانقسامية كما وضحت تفترض أن القبائل التي تندرج في خانة الانقسامية هي قبائل سائبة، ومن خلال عملية نبش سريعة في التاريخ السياسي للمنطقة يتأكد أنها قبائل كانت خاضعة للسلطة المركزية وهذا الخضوع تجسد عمليا في وجود عمال ومراكز عسكرية ومخزنيه كما تجسد في مساهمة القبائل في الواجبات الضريبية والعسكرية [3].

ثانيا: وجهت انتقادات لأصحاب المقاربة الانقسامية لتأكيدهم على أن المجتمعات التقليدية آيلة للتفكك والزوال وهو موقف دحضه رواد الأنثروبولوجيا الدينامية الذين برهنوا في ابحاثهم بالمجتمعات التقليدية بحوض البحر الأبيض المتوسط ودول الساحل أن الأخيرة تعرف التحول والتبدل كما أنها استطاعت ضمان امتدادها في الزمن بفضل ديناميتها، مفهوم القبيلة ظل حاضرا كمكون أساسي في هذه المجتمعات لكن وظائفه اختلفت إذ أصبح يوظف لأغراض سياسية وانتخابية أو عند نشوب أزمات وهو ما وقفنا عليه في مجتمع الصيادة بقرية الصيادين كتنظيم يضم مختلف الأطياف القبلية مشكلين بذلك هوية بحرية مشتركة ومع ذلك القبيلة تستدعى بين الفينة والأخرى فقط على الأنثروبولوجي تتبع تجليات هذا الاستدعاء وكذلك الوظائف الجديدة التي أصبحت تقوم بها.

ومن الأدلة الدامغة التي تبرز أن القبائل بمنطقة البحث لا علاقة لها بالمقاربة الانقسامية حضور الصلحاء والشرفاء وحتى أولياء الساحل، فالمنطقة تعج بالسادات والأولياء وهو ما يضفي على هذه المجتمعات طابعا تراتبيا، وطبعا هذه التراتبية تجسدت من خلال الشرفاء بالمنطقة الذين قادوا الجهاد ضد المستعمر.

المبحث الثاني: تفكك المجتمع الريفي عشية الحماية الإسبانية

في هذا المبحث سنركز على الأوضاع الجديدة التي خلقها الاستعمار الاسباني بمنطقة البحث هذا الوضع الجديد اصطلح عليه جورج بلاندي ب "Situation coloniale"، الملاحظ أن الكتاب الأوربيين وحيث انهم كانوا متشبعين بأيديولوجية استعمارية فإنهم جندوا أقلامهم لتبرير الغزو والأوضاع الجديدة التي خلقوها محاولين شرعنه هذا الواقع الجديد عبر وصفهم للمجتمعات المستعمرة ب بلاد سيبة، الفوضى، اللصوصية ...

أ–الحياة الاجتماعية للقبائل بمنطقة البحث بالريف الغربي

تشكل بلاد جبالة الجزء الغربي من بلاد الريف وهي تنحصر عموما بين وادي اللوكس وجبال غمارة وبوغاز جبل طارق والسهول الاطلنتيكية والمنطقة ضمت أعراق من سكان أصليين وهم الغماريين المصادمة ثم بعد ذلك طرأت تغيرات على الوضع السكاني مع قدوم عرب بني هلال الذين أرغموا السكان الأصليين على الاعتصام بالجبل أو على التعرب والاندماج، ثم انضاف عنصر اخر قادم من الأندلس العرب واليهود الذين طردوا جنبا إلى جنب بعد سقوط غرناطة العام 1492 م واستوطن بعضهم المنطقة[4].

وفي هذه المرحلة بالذات كان سكان المنطقة مرتبطين بالأرض يعتمدون في معيشتهم على زراعة الحبوب وغرس الأشجار في السفوح وتربية الماشية، المنطقة عرفت بصناعاتها التقليدية البسيطة مثل النسيج والخزف والصوف والدباغة ... وكان السكان بالمنطقة ينتظمون داخل القبائل مشكلين وحدات اجتماعية، واقتصادية وجغرافية، كانت كل قبيلة تنقسم إلى مجموعة من العظام تتكون كل منها من أسر أبوية تتوزع على المداشر التي يقع ضمنها كل عظم، وهذه القبائل كانت خاضعة خضوعا تاما للسلطة المركزية ومع ذلك متعت بقدر وهامش لابأس به من الاستقلال الذاتي في تسيير شؤونها الداخلية [5].

ب–التسرب الاقتصادي الكولونيالي الاسباني وانعكاساته على المجال والمجتمع.

لا يختلف اثنان في كون المنطقة الشمالية التي آلت إدارتها إلى اسبانيا هي منطقة فقيرة الموارد مقارنة بباقي الأجزاء تحت السيطرة الفرنسية ، على سبيل المثال المجال الصالح للزراعة لا يمثل سوى 13% إلى 15%، كما أن الإسبان في هذه الفترة كانت دولة متخلفة وغير قادرة على صرف الاعتمادات الكافية لتحقيق التنمية على الأقل في بعدها التقني كما هو الشأن بالنسبة للمغرب الأوسط إذ كانت تعوزها التقنيات الحديثة مقارنة بفرنسا وهذه المسألة تنبه لها حتى الاسبانيين أنفسهم حين عبروا بقولهم "الفرنسيين خصوا أنفسهم باللحم وتركوا لنا العظم"[6]. الأمر الذي تم التأكيد عليه في مقال نشر بتاريخ 19 يناير 1919 في جريدة "المستقبل" الصادرة بطنجة من خلال العبارة التالية "فوتت لنا المنطقة الأكثر شراسة وتسيبا، مأهولة بقبائل محاربة إلى الرمق الأخير وهي كذلك الأفقر إلى أدنى درجة، أما المنطقة المجاورة فتسودها السهول الشاسعة والخصبة وتسكنها قبائل ميسورة ... لقد منحونا الجزء المتمرد على السلاطين: الريف وبلاد جبالة". وتفيد المصادر التاريخية أن الإسبان بدأوا التغلغل في المنطقة رويدا رويدا، وتجمع الاحصائيات أن عدد مهم من الإسبان المستقرين فوق التراب المغربي عرف تزايدا ملحوظا خصوصا مدينة طنجة وتطوان ففي سنة 1906 ملكوا 21,5% من الأراضي المفوتة للأجانب[7]. ولتأكيد مدى تغلغل الاقتصاد الاسباني في شمال المغرب وخلقه أوضاعا جديدة على الأرض قوضت بنيات الاقتصاد المحلي التقليدي، عملت الإدارة الإسبانية الاستعمارية على رفع التحدي وتحقيق استقلالها المالي والواقع أن هذا الاستقلال المالي ما كان له أن يترجم على أرض الواقع لولا الدعم والمساعدة من سلطات المركزية الإسبانية ومن المتروبول ذاته "منذ انتصاب الحماية وتطبيقا للالتزامات الدولية، وجب على الدولة الإسبانية مساعدة منطقة حمايتنا اقتصاديا عبر تقديم مساعدات ودعم الخزينة ... ويتعلق الأمر بتمويل برامج البنية التحتية، أما الوضع العادي فيتمثل في منح مبالغ موجهة للحد من إفلاس الميزانيات"[8].

ج–التنظيمات التقليدية في عهد الحماية

بعد سيطرته على المجال قوض المستعمر البنيات التقليدية بالريف ومجتمعنا الدراسي، هذه البنيات التقليدية اعتمد عليها المجتمع المحلي في تدبير المشترك الجمعي لأمد طويل، والواقع أن المجال الريفي يختلف عن باقي مجالات مناطق المغرب، فهو يتميز بخصوصية إن على مستوى تضاريس المنطقة الوعرة، أو بالنسبة للإنسان المتوسطي الذي تنشأ في قيم القبائل في الريف المتمرسة والمقايضة للسلطات المركزية وذات تجربة في خوض المعارك مع الأوربيين.

الاستعمار الاسباني خلق وضعا جديدا بالمنطقة عمل على تفكيك البنيات التقليدية أو على الأقل حد من تأثيرها لأنه كان ينطلق من فكرة أن هذه البنيات التقليدية "متخلفة" وتعيق التطور وتحقيق التنمية هكذا كان هاجس المستعمر هو تهدئة القبائل وإخراجها من وضعها "البدائي" وهو منظور منغمس في اثنو–مركزيته، أمام هذا الوضع الجديد أصبحنا أمام تنظيمات تقليدية وأخرى حديثة مستوردة.

د–تبلور شريحة اجتماعية في الريف: المأجورون

في هذه النقطة بالذات يجذر بنا التأكيد على أن الكتابات الاستعمارية الإسبانية لم تول المواضيع التي لها علاقة باليد العاملة الأهمية التي تستحق، على عكس منطقة الحماية الفرنسية التي راكمت كتابات كثيرة في هذا الشأن نذكر على سبيل المثال لا الحصر "**روني هوفير Roné Hoover**" و "**إيفون ماهي Yvonne Mahi**" أغلب أبحاث هؤلاء منشورة في النشرة الاقتصادية للمغرب[9].

والواقع أن المعطيات حول هذه الفئة تكاد تنعدم باستثناء إحصائيات تهم الصناعات المرتبطة بالصيد البحري

سنة 1940	كان مجموع المأجورين في القطاع 509
سنة 1943	كان مجموع المأجورين في القطاع 654
سنة 1945	كان عدد المأجورين في القطاع 593

ويظل التفسير الوحيد لغياب دراسات حول شريحة المأجورين بشمال المغرب هو تخلف الاستعمار الاسباني مقارنة بالفرنسيين. ومع ذلك أمكننا القول أن ظروف انبثاق الطبقة العاملة بالمغرب عموما جاءت نتيجة لمسلسل " التهدئة" وفرض نظام الحماية هذا الأخير تمكن من خلق وضعية استعمارية جديدة وهو مفهوم نحته "جورج بلاندي" من خلال دراساته حول دول الساحل الافريقي. هكذا عمل الاستعمار على تكريس منطق الاقتصاد الكولونيالي الذي أحدث ولاشك تغييرا في الحياة والبنى الاجتماعية وفي نمط حياتهم، فمفهوم الزمن لم يعد بطيئا كما كان ففي ظل الوضعية الاستعمارية جديدة تغير الزمن الفلاحي المرتبط بالدورات الزراعية إلى زمن تكنولوجي، تطبيع الناس مع الهجرة وتلاشي قيم الارتباط بالأرض، تحول الاقتصاد من اقتصاد كفاف وتفتيت وتقاسم إلى اقتصاد تراكمي مقرون بالسوق والاستهلاك و الإدخار، هكذا استطاع الاستعمار إحداث تغييرات جوهرية في منظومة القيم، الريفي طبع مع العمل المأجور، انخرط في أنشطة مستوردة من قبيل بناء الطرق والسكك الحديدية والسدود بشكل مؤقت كلما دعت الحاجة الى ذلك. لكن النشاط الذي تعاطته الساكنة بشكل ملحوظ هو موضوع بحثنا الصيد البحري، هذا النشاط عرفت به المنطقة منذ القدم لكن في أشكال تقليدية بدائية رغم توفر المغاربة على شواطئ طويلة تزخر بكميات هائلة من الخيرات لكن كما أكد "**لوي برينو Louis Brenot**" علاقة المغاربة بالبحر كانت علاقة متوترة على الدوام لكن هذا النشاط سيكتسي أهمية بالغة مع تغلغل الاقتصاد الكولونيالي حيث سيساهم هذا الأخير في تطوير القطاع، سيشيد الموانئ، سيجلب التقنيات البحرية ومنطقة البحث لازالت تحتفظ ببنايات وموانئ بحرية ونقط التفريغ شيدت في عهد الاستعمار الاسباني . طبعا هذا الوضع الجديد سيساهم في خلق دينامية سوسيو–مجالية عبر تدفقات الناس الكبيرة إلى السواحل ستؤدي إلى بروز ما يعرف بظاهرة "**littorisation السوحلة**" ستشيد بعض المراكز الحضرية قاع سراس، سطحيات، الجبهة، واد لاو، هذا

الوضع كان من نتائجه المباشرة تقويض الأنشطة التقليدية بالجبل التي لعبت دورا اساسيا في الحفاظ على التوازنات الاجتماعية والتماسك الاجتماعي لعقود من الزمن.

خلاصة

عرفت التنظيمات التقليدية بالريف تغيرات وتحولات كبيرة في وظائفها وادوارها بفعل الدينامية الخارجية والمتمثلة في الاستعمار الاسباني، الذي عمل على إفراغ هذه التنظيمات من وظائفها المعتادة وعمل على استنبات أخرى مستوردة، هكذا لم تعد للقبيلة أدوارها المعهودة بل اضحت تحت وصاية القائد الاسباني الذي يمتلك السلطة السياسية ، اما الجماعة أصبح دورها محصور جدا ولم تعد لها صلاحية التدخل في المنازعات والبيع والشراء وعقود الزواج والطلاق فكل هذه القضايا أصبح الاستعمار الاسباني مكلفا بها أما الزوايا فهي لم تتأثر كثيرا وبقيت تؤدي أدوارها التقليدية الروحية والدينية لكن الزوايا التي كانت تتبنى الفكر الجهادي وتناهض الاستعمار الاسباني تتعرض للتضييق وخلاصة القول أن الاستعمار الاسباني سلب التنظيمات قوتها لكنه لم يستطع القضاء عليها ،لكنه عندما حاول خلق التفرقة بين المغاربة أمازيغ / عرب، مدينة / قرية ،مغرب نافع / مغرب غير نافع هذه المحاولة كانت دافعا لبداية تشكل هوية وطنية وبذلك دشن المغاربة مرحلة جديدة وهي الانتقال من آتون القبيلة إلى تشكل هوية وطنية جماعية.

المبحث الثالث: الصيد البحري من التشظي القبلي إلى تشكل هوية جماعية

مقاربة اثنوغرافية لقرية الصيادين بالشماعلة

1–خصوصيات البحار الصياد في مجتمعنا الدراسي

أ–الأصل الاجتماعي والمهني للبحار الصياد

مجتمع الصيادة البحارة بمنطقة الجبهة مجتمع دينامي إذ نسج سكان المنطقة علاقتهم عبر مراحل لكن تعد مرحلة الاستعمار الاسباني مرحلة مهمة في تطور الصيد البحري بالمنطقة بفعل عملية المثاقفة مع الصيادة الاسبانيين الذين يتمتعون بحنكة ودربة في المجال ،لذلك فعلاقة الإنسان المحلي بالبحر تشكلت باعتبار الأخير فضاء للاستثمار و مجالا للأنشطة الممارسة فيه ،لذلك امكننا القول أن حياة الناس بالمنطقة ليست جامدة وراكدة وإنما عرفت تعديلات وتحولات في أنماط عيشهم وفي علاقتهم بالبحر ، البحر بالمنطقة وبفعل تقلص الأنشطة الفلاحية بالجبل أضحى يشكل وحدة اجتماعية للبحارة ومن خلال لقاءات متكررة مع المبحوثين في منطقة البحث اغلبهم صرحوا أنه يصعب عليهم أن يعيشوا خارج البحر فقد اسسوا عالمهم وأصبح للبحار نظامه الخاص واصبح يشكل نظاما فكريا مشتركا في بعديه المحلي والكوني .

اغلب البحارة ومن خلال الدراسات التي أقيمت حول هذه المجتمعات يؤكدون "يجب أن يكون لك دم الفقمة phoque يجري في عروقك حتى تكون بحارا"[10] وهو الأمر الذي أكده العديد من المبحوثين في مجتمعنا الدراسي إذ عبر أحدهم بقوله ،" يجب على الإنسان أن يكون ماء البحر يجري في عروقه حتى يكون بحارا " وذهب اخر بالقول " لكي تكون بحارا يجب أولا ان تتمتع بالحال و لكن الوصول الى مقارعة الأمواج المطلوب بدل مجهود مضني " [11] وهو تصريح ينهل من الفلسفة الصوفية التي تؤطر التصوف من خلال مقولة الحال بالجود والمقام بالمجهود .وهناك من المبحوثين من ذهب ابعد من ذلك وربطوا مزاولة مهنة الصيد بضرورة التوفر على خصائص فيزيقية و سيكولوجية معينة لا يمكن أن يتمتع بها أي كان الا اذا رضعها من حليب امه ، التي تمنحه السلالة القوية القادرة على مجابهة اخطار البحر ،زد على ذلك هؤلاء يشتركون في استنشاق نفس الهواء البحري النقي و يقتاتون على الأسماك المتنوعة على طول السنة .

لذلك نخلص القول إن مجتمعنا الدراسي عرف تبدل وديناميا بحيث فئة البحارة الصيادين في اوقات سابقة كانوا يمتهنون الفلاحة في الجبل والحرف التقليدية لكن مع دخول الاستعمار الاسباني الى المنطقة قوض هذه الأنشطة التقليدية و جلب اليد العاملة الى عالم البحر بحيث انخرط هؤلاء في نشاط بطرق و تقنيات جديد مستوردة، لكن بفعل تناقص الثروة السمكية من جهة والهجرات وانفتاح مجتمع الصيادين على الجبل(زراعة القنب الهندي) أصبح القطاع خليط من المنتمين إلى البحر وغير المنتمين وهذا يدل على أن هذه المجتمعات ليست راكدة أو متكلسة وإنما هي مجتمعات دينامية يطالها التبدل والتحول، وهو الأمر الذي سيقودنا للحديث عن تشكل مفهوم الثقافة البحرية.

ب– تشكل ثقافة الصياد البحار

إن اشتغالنا على مجتمعنا الدراسي المتمثل في فئة الصياد البحار التقليدي حرصنا على احترام المقاربة الأنثروبولوجيا التي تتعامل مع الثقافي باعتباره موضوعا لا يجب التعامل معه تجريبيا يسعى خلف صياغة قانون بل على العكس من ذلك، المقاربة الأنثروبولوجيا علم تفسيري بالدرجة الأولى يبحث عن أقاليم المعنى. وبالرجوع إلى رواد المدرسة الثقافية "**غيرتز وبواز Geertz et Boaz**" وآخرون الذين أكدوا على حقيقة مفادها أن البلوغ إلى فهم ما معنى الثقافة فيجب التركيز على الخاص لا العام أو بصيغة أخرى الانطلاق من مقاربة تندرج في إطار الميكرو.

- **ثقافة البحر**

الحديث عن ثقافة البحر يجب أن يمر عبر وضع تحديد لمفهوم الثقافة كمفهوم يميز حقل الأنثروبولوجيا، ويظل هذا مفهوم مخاتلا ومتعددا، وقد أكد أغلب الدارسين خصوصا الانثربولوجيين الانجلوساكسونيين على نسبية مفهوم الثقافة، لذلك أرى أنه من الضروري الوقوف على تحديد مفهوم الثقافة باعتباره المفهوم الأهم في حقل الأنثروبولوجيا والأكثر استخداما والأكثر تنازعا عليه في الوقت ذاته، أريد أن أنزاح قدر المستطاع عن المألوف وسأتجنب إعطاء تعريف مباشر حول المفهوم بالمقابل سأحاول تجريب خيار آخر والمتمثل في استحضار حدث وقع لي في ميدان البحث والذي ربما قد يسعفني في نقل كيفية جديدة لفهم ما معنى الثقافة ؟

لقد أنجزت عملي الميداني الأول في المقاطعة البحرية الجبهة، قضيت بها مدة زمنية لا يستهان بها وبها أنجزت بحث ماستر سوسيولوجيا التنمية في موضوع " الاقتصاد التضامني وسؤال التنمية " بالمقابل قضيت أوقاتا لا تنسى وأنا أجوب شواطئ وجبال هذه المنطقة الخلابة، التي تنتشر بها مجموعة من البنايات التقليدية والتي تحتوي على بيوت واسطبلات وكذلك غرف للضيوف تدعى " الغرفة " وقد أقمت في هذه البلدات مدة كانت كافية سمحت لي بنسج علاقات وطيدة خصوصا مع **الرايس عزيز** وهو شاب بحار ملاك لقارب صيد. وطدت علاقتي كذلك برئيس جمعية الصيادة " الحاج مصطفى " الذي ظل على رأس الجمعية لأزيد من عقدين من الزمن إلى حدود اليوم، الجميل أننا لا زلنا على تواصل إلى حدود اللحظة. في أول زيارة أتذكر كانت فترة الراحة البيولوجية، مرت الأيام ببطء قمت بخرجات استكشافية تمتعت بجمال المنطقة الجبلية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط، شاهدت في الجبل قطعان الماعز وهي ترعى على الغطاء النباتي المتنوع والممتد على طول سلسلة جبال الريف، لم أكن قد أتقنت بعد لغة المنطقة لذا كانت محادثاتنا تقتضي قدرا مهما من التبسيط وشرح للمفردات. وفي لحظة معينة سألني "رايس عزيز" إن كنت أرغب ركوب البحر، وبالنظر إلى كوني لم يسبق لي ركوب هذه المخاطرة فقط انتابتني حالة من التردد والخوف وطبعا كانت إجابتي مهذبة لكنها فاترة وبلا حماسة.

قفز "رايس" على ظهر مركبه بخفة ورشاقة ثم طلب مني أن أتبعه، وانطلق بسرعة وسط البحر وهو يغني الطقطوقة الجبلية وبطبيعة الحال كانت التجربة بالنسبة إلي جديدة وقاسية وتملكني دوار شديد اعتقدت معه أنني لن أعود مجددا للبابسة، وحين التقطت أنفاسي بعد مجهود مضني وبتطمينات من الرايس قفز إلى رأسي ما نهلته خلال فترة دراستي بشعبة الأنثروبولوجيا حينما كان أساتذتي في محاضراتهم يؤكدون أن نمط الحياة وعمل الإنسان هو بناء ثقافي بالدرجة الأولى فبالنسبة "لرايس " ما يقوم به هو ثقافة تدخل في نطاق المعتاد اليومي المعاش

والمكتسب عبر مراحل حياتية، لكن بالنسبة لي التجربة كانت مغامرة محفوفة بالمخاطر لكن مع مرور الوقت أصبح الأمر متعة وهو ما دفعني لإجراء مقابلة مع صديقي على ظهر مركبه لاحقا.

طبعا هذا السرد لتجربة حياتية لم يكن تعريفا للثقافة، بل كان مثالا استحضرته لعله يلامس معظم ما يشكل أهمية في الفهم الأنثروبولوجي، فالثقافة هي نمط حياة وهي كذلك طريقة لرؤية الأشياء وهي وسيلة لبلوغ المعنى وهي بالتأكيد ما يمنعنا من الاستخفاف أو احتقار ما يقوم به الآخر بدءا من إعداد التجهيزات و ركوب البحر وصيد الأسماك والعودة إلى نقط التفريغ، لتفريغ المحصول، لذلك فالثقافة مفهوم قائم الذات، فكوني غامرت بركوب البحر وأصبت بدوار كبير وأحسست بأني لن أعود مجددا ليس لأني ضعيف البنية أو مصاب

بإعاقة تمنعني من ركوب البحر، أصبت بدوار ووهن لان جسدي ثقافي أو بصيغة أخرى هو غير متعود على هذا النوع من أنماط الحياة إذ في ثقافتنا قد نصعد إلى قمة الجبل لكن لا نركب البحار.

هذا الفهم للثقافة هو أقرب لتحديد" **فرانز بواس**" وهو من أهم الباحثين الذين أطروا هذا الجزء المتعلق بنظرية الثقافة واعتبر إلى جانب آخرين أن كل الثقافات ينبغي أن يحتفى بها وتفهم وفق ابداعاتها الخاصة، كما هو الشأن بالنسبة لثقافة البحر التي تتميز بخصوصيات لا تشبه تلك الموجودة على اليابسة لذلك أمكننا القول إن مفهوم الثقافة صار مفهوما ناظما، وآلية يراد من خلالها التعبير عن هذا الالتزام بالخصوصية.

ج– قيم البحار الصياد بين المحلي والكوني

يرى عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي "**لويس دومون Louis Dumont**" أن مفهوم القيم هو مفهوم أنثروبولوجي بامتياز والمفهوم يتجلى بوضوح في المقاربة الثقافية، فتحليل القيم يتمظهر بوضوح عندما يكتب علماء الأنثروبولوجيا عن الشعوب التي درسوها دراسة ميدانية من قبيل التعاقدات، التقاسم، قيم الضيافة، نقاء المرأة،...وفي غالب الأحيان يستخدم الأنثروبولوجي القيم لتصنيف أنواع الثقافات التي يدرسونها، والمتن الأنثروبولوجي غني بالمناقشات حول مثلا مجتمعات التقاسم وتفتيت الثروة، وحول المجتمعات القائمة على الشرف وأخرى قائمة على المكانة إلى غير ذلك... ومنطقة حوض البحر الأبيض المتوسط أنتجت حولها أدبيات مخصوصة من قبيل قيم الشرف وغسل العار، القرابة، نقاء المرأة، ثقافة الغابة، ....هذه القيم بالإضافة إلى أخرى اعتبرها الأنثروبولوجيون مكونا من مكونات هوية المنطقة. ومن بين القيم التي سنقف عندها والتي تخص مجتمعنا الدراسي الذي ينتمي لنفس المنطقة الثقافية قيم التقاسم والتضامن وتفتيت الثروة...

ما تجدر الإشارة إليه هو أن مجتمع البحث هو مجتمع محلي تقليدي محافظ فالطقوس بالنسبة له مهمة، أساسية وتسهم في عملية النقل الثقافي من جيل إلى جيل من خلال التنشئة الاجتماعية للأفراد الذين ينخرطون في الجماعة، فهو يمنح أهمية بالغة للطقوسي والاحتفائي وكثيرة هي مظاهر الاحتفالات التي حضرت لها وأخص بالذكر على سبيل المثال لا الحصر موسم سيدي يحيى الورداني هو ولي من أولياء الساحل وما يتخلله من ذبيحة وطهي الطعام وتوزيع الأكل على المعوزين والفقراء في طقس يدعى "اللمة" دون أن ننسى الأمداح والتراتيل التي تصاحب المشهد الإحتفائي بهذا الولي الصالح وقس على ذلك الأولياء والسادات الذين يؤثثون كل المجالات المجاورة لمجتمعنا الدراسي. طبعا دخول المراكب إلى نقط التفريغ لا تمر العملية في صمت بقدر ما تتخللها هي الأخرى عادات وأعراف متوارثة عبر الاجيال، هذه الطقوس يجب أن نفهمها بالمعنى الذي تحدث عنه "**بيير كلاسترpierre clastres**" والذي يفيد أن هذا النوع من المجتمعات التقليدية ليسوا آلات للعمل فمهنة الصيد بالنسبة لهم ليس نشاط لتكديس الثروات بل نشاط له حدود معينة ومن خلال استجوابنا للمبحوثين عن كمية المحاصيل المفرغة يرددون عبارة وكأنهم متفقين عليها "الله يجعل البركة والله يقوي الخير ولمعندوا فدان البحار فدانوا" فهؤلاء بالنسبة لهم لا يجب أن يتجاوز العمل مداه "وسخ الدنيا يبقى فيها" على حد تعبير أحدهم، لذلك فهم حريصون كل الحرص على ترك هامش للاحتفال والترويح عن الذات إما في المناسبات المعتادة الموسمية يحيى الورداني، سيدي فتوح، بن سبع، أو عبر ولائم يقيمونها بالتناوب في بيوتهم وقد أسعفني الحظ لحضور العديد من المناسبات ,هذا الجانب بالذات رسخ لدي فكرة حول هذا النوع

من المجتمعات التقليدية وهي مسألة التقاسم وتفتيت الثروة، وأن مكانة الفرد لا تتحدد من خلال ما يملك من مراكب أو قطعان الماعز، هذه المجتمعات تمنح السلطة للفقهاء والشيوخ وحفظة القرآن كل هؤلاء يتمتعون بسلطة رمزية واسعة وبمكانة و حضوة لدى الأهالي وهذا المعطى تبين لي بجلاء من خلال مراكز استحواذ الفقهاء على التعاونيات والجمعيات وعلى سلطة القرار في المنطقة على سبيل المثال "الحاج مصطفى" رئيس تعاونية تيغيساس هو في الآن نفسه إمام مسجد لذلك فإن "جورج بلاندي"، "روبير مونتان" و"جاك بيرك" وأخرون كل هؤلاء أكدوا أن عامل الدين له دور كبير في التراتبية الاجتماعية، بمعنى آخر حفظة القرآن هم من يحتلون مكانة متقدمة في التراتب الاجتماعي لذلك في كثير من الأحيان حتى الفاعل الرسمي بالمنطقة يستعين بالإمام وهو رئيس التعاونية لفض النزاعات بين البحارة أو الاستشارة معه في قضايا تخص قطاع الصيد البحري التقليدي ،وهذه المسالة تنم عن كون القانون الوضعي في بعده العقابي لا يحل إشكالات الصيادة التقليديين وقد حضرت إحدى هذه الاجتماعات عندما أقرت الوزارة تعويضات لأرباب المراكب الذين تضرروا جراء تسونامي ضرب المنطقة ولم يستطيع المسؤول عن القطاع القيام بالمهمة لولا تدخل رئيس التعاونية الشيخ الإمام. هذه المسألة يقف عندها "جورج بلاندي" و يرى أن الأنثروبولوجي يجب عليه أن يعمل بمعرفة منظمة لدراسة تجارب انسانية واقعية والتي نحن بصدد القيام بها إذ نستطيع القول أن مجتمعنا الدراسي التقليدي مجتمع دينامي عرف تغيرا وتحولا كبيرين سواء من خلال علاقة مجتمع الصيادة التقليدي بالدولة ومؤسساتها التي تعمل جاهدة على تحديث القطاع من خلال تشييد قرى للصيادين بالمنطقة وتوزيع ما يعرف ببطاقة التاجر إذ بإمكان الأخير بيع منتوجه في المغرب ، تقديم تعويضات عن المخاطر المحتملة ،هذه الدينامية في كثير من الأحيان تلقى مقاومة شديدة من الصيادة البحارة الذين يعتبرون المسألة هي عملية سطو ممنهجة على إرثهم ومقدراتهم السمكية. من جهة ثانية و تأكيدا على هذه الدينامية وباستحضارنا لإرث "جورج بلاندي" وحديثه عن "الوضعية الاستعمارية" فإن الاستعمار الاسباني هو من طور الصيد في هذه المناطق فاغلب سكان كانوا يشتغلون بالفلاحة وتربية المواشي، دخول الإسبان أحدثوا وضعا جديدا بتحويل حياة الناس من الفلاحة إلى الصيد البحري لذلك فإن مجتمعنا الدراسي هو في حالة تحول فهو لم يستطيع التخلص من رواسب الماضي بالمقابل نلحظ بالمنطقة تأثيرات الحداثة طبعا هذه التأثيرات ليست في متناول جميع الصيادة بالمنطقة وهو ما يجعل عالم الصيادة البحارة مجتمعا "هجينا hybride".

د– طرق التنشئة لدى البحار الصياد

المبدأ الذي حاولت الانطلاق منه في عملي الميداني هو اعتبار المبحوثين المصدر الأول للحقيقة، ومن تم فإن المبحوث هو من يضفي معنى على الأفعال التي يقوم بها، ومهمتي التي حاولت التقيد بها كباحث هي الكشف عن مغاليق حياة المبحوثين وعن المعنى الثاوي خلف البنيات وتصرفات الفاعلين.

في سؤال لأحد المبحوثين وهو عضو منخرط في تعاونية يحيى الورداني وناشط مدافع عن البيئة بالمنطقة حول الكيفية التي يتم بها تنشئة الخلف ونقل الحرفة حرفة الصيد إلى الاجيال القادمة ، كانت إجابته واضحة بحيث أكد على أن البحار هو إنسان ناضج و مسؤول ومقتنع بأن عملية نقل الحرفة تتم عبر تشجيع الناشئة وتيسير مهمة التنشئة والتثاقف بالنسبة للملتحقين بالبحر وتبسيط إجراءات عملية الاندماج في الجماعة البحرية يضيف المبحوث وكأنه يحيلنا على خريطة الطريق للملتحقين الجدد، فبالنسبة له الملتحق بالجماعة البحرية خصوصا الشباب مطالبين بالتأقلم مع ثقافة مهنية منفصلة عن العائلة وبدون أي دعم منتظر منهم إذ يؤكد أن الهوية السابقة قبل الالتحاق يجب التخلي عنها لأن قيمها لا تنسجم مع عالم البحارة لذلك من الضروري الانخراط جديا في تشكيل هوية بحرية جديدة هذا الالتحاق حتما سيحرمه من عدد كبير من الحريات التي كان يتمتع بها على اليابسة، فبمجرد أن تصبح بحارا فإن سلطة وإكراه البنية سيمارس عليك من جماعة البحارة وبذلك يبدأ الإنسان مسارا جديدا ميزته استقبال توجيهات وأوامر وعليه الانصياع وتنفيذ هذه الأوامر وهذا ما يفرض عليه تطوير قدراته ومهاراته في إطار محدد وفي مجال بحري جديد ,طبعا هذه الصرامة وهذا النوع من التنشئة عند البحارة الصيادين يضيف المبحوث تخلق تدافعا وتتطلب صبرا كبيرا ولعل هذا الحراك وهذه الدينامية التي تميز مهنة الصيد هي سبب رئيسي ومباشر في عدم استقرار اليد العاملة في المهنة، وبحثها الحثيث عن قطاعات وأنشطة اقتصادية أخرى.

وعن الركائز والأسس التي ترتكز عليها مهنة الصيد أجاب أحد المبحوثين وهو ملاك زاول مهنة الصيد مع الاسبان ونهل من معرفتهم واكتسب مهاراتهم و برجوعه للنبش في الذاكرة، أكد على أن الإسبانيين تنقصهم فقط الشهادة وفي قوله هذا هو يثني على قيم البحارة الاسبانيين الذين كانوا يركزون في عملهم على العلاقات الإنسانية هذه الخصلة على حد تعبيره لها فوائد جمة فهي تحفز رجال البحر على بدل المزيد من المجهودات وأمام شعور هؤلاء بالانتماء إلى الجماعة وإحساسهم بالاستقرار والأمن كل هذا ينعكس إيجابا على الإنتاج والمردودية، فهؤلاء ومن خلال ترددي المتكرر على مجتمع البحث من خلال المقابلات الفردية والجماعية والورشات التكوينية التي ساهمت في تأطيرها تبين لي أن قطاع الصيد البحري بالمنطقة يتميز بالتقليدي والبساطة جعلت من المشتغلين في هذا القطاع فئة منسجمة ومتناغمة تربطهم علاقات إنسانية واجتماعية جد متينة خصوصا أثناء مزاولة عملية الصيد، فبالرغم من نشوب مناوشات هنا وهناك بين قوارب الصيد ووجود نوع من المنافسة فيما يخص اصطياد الأسماك مع ذلك هناك شعور طاغي بينهم هو الانتماء إلى فئة ثقافية ولعل هذا عامل أساسي في نظري يحافظ على تماسك و تلاحم هذه الفئة في مواجهة مخاطر البحر، وفي اليابسة يوطدون علاقتهم الاجتماعية لمجابهة صعوبة الحياة وغلاء المعيشة وهم بذلك يوظفون استراتيجية القرابة الاصطناعية La parenté artificielle لضمان بقائهم وامتدادهم في الزمن .

هـ-تحليل يوميات الصيادين التقليديين في إطار أنثروبولوجيا الاقتصاد

في شتاء عام 2022 ذهبت في مهمة تأطيرية، بطلب من مندوبية الصيد البحري بالجبهة المركز، إقليم شفشاون و هي المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط بشمال المغرب ،واستقر بي المقام في قرية الصيادين بجماعة "اشماعلة" ففتنت بأساليب سكانها في طرق الصيد وخصوصا التقليدي، وفي الزراعة وتربية الحيوانات ومهاراتهم في صناعة الملابس التقليدية، وتصميم الرقصات الجبلية البديعة، وبدلا من مكوثي بينهم بضعة ايام لإنهاء ورشات التكوين حول موضوع اعداد المشاريع وورشات تكوينية في موضوع الاقتصاد الاجتماعي ، طالت إقامتي لفترة ليست بالقصيرة، لذلك حين عدت إلى مدينة القنيطرة وجدت نفسي أتحدث لغتهم بطلاقة، واصبحت مهووسا بعالم البحر.

إن مجتمع الصيادين بهذه المنطقة الخلابة وطريقة صيدهم جماعة، وكيف يفرغون محصولهم في نقط التفريغ وهم حريصون كل الحرص على تفتيته وتقاسمه بطريقة اثارت استغرابي فكل الفئات والشرائح المجتمعية بمنطقة البحث يحصلون على نصيبهم من الغلة، بما فيهم المعوزين وعابري السبيل، بل ما لفت انتباهي العلاقات البينية المبنية على التآزر والتضامن بين مختلف القطاعات الإنتاجية، الفلاح بفواكهه وخضرواته الطازجة المنقولة توا من الجبل إلى السوق المحاذي لقرية الصيادين ،وفي عملية بديعة شبيهة بتقنية المقايضة يزود الصياد الفلاح بأجود الأسماك التي جاد بها البحر في حرص تام على أن تتم العملية في إطار من الرضا و التوافق والاقتناع، فهؤلاء يصطحبون معهم أبناءهم وهم يقومون بأنشطتهم المعتادة وكأنهم يغرسون في نفوس الصغار قيم الالتزام والصبر والاحترام والعمل الدؤوب والأهم من كل هذا قيم القناعة والتقاسم وتفتيت الثروة، كل هذا يفسر كيف تؤكد الرموز الغنية المعبر عنها في تراتيلهم وفي مهرجاناتهم وخصوصا" عمرة سيدي يحيى الورداني " وهو ضريح لولي صالح قريب من البحر يجتمع فيه الاهالي وحتى القبائل المجاورة في طقس يصطلح عليه " اللمة " أن كل ما ينبثق عن هذه الدراسة للأنماط الغذائية والتبادلية والتقاسم ونبذ مراكمة الثروة لدى أهالي "منطقة الشماعلة" ينتمي إلى الثقافة في أوضح صورها، بحيث يتصل بكيفية بقاء وتماسك وازدهار هذه المجتمعات رغم النذرة والصعوبات الحياتية المرتبطة ببيئة قاسية وراكدة عبر الروابط القرابية وأشكال التبادل المجتمعية، والحقيقة أنني أمضيت وقتا ممتعا وسط الصيادين وفي نقط التفريغ وفي الأسواق وهم يعرضون منتجاتهم، و في وقت الفراغ وهم يقومون بصيانة معداتهم وتخييط شباكهم دون كلل او ملل والابتسامة تملء وجوههم، فمهما تأملنا عن قرب هذا التلاحم والتضامن بين كل الشرائح المشتغلة في البحر –حتى النساء اقتحمن هذا المجال الذي كان حكرا علي الرجل– وهم يفتتون المحاصيل فلن نتعلم شيئا ما لم ننتبه إليه بعيون تستحضر تشكل هذا الوعي الجمعي واقتناعهم الشديد أن البحر لا يمكن مجابهته فرادى.

إن معايشتنا لمجتمع الصيادين ب"الشماعلة" هو يدخل في صميم الأنثروبولوجيا فطبعا الدافع وراء هذا العلم هو الفضول الذي يستتبعه التساؤل عن أشكال التعبير والالتزامات والمؤسسات والتعاقدات ... وكل خصائص تميز الجنس البشري ويمكننا طرح التساؤل بصيغة أخرى ما هو الشيء الذي نتشارك فيه جميعا؟ وما الذي نرثه عن ظروف المجتمع والتاريخ؟

أن اشتغالي على مجتمع الصيادين وانجذابي إلى عالم الصيد البحري التقليدي على وجه التحديد كان بسبب قراءتي لكتاب في الأنثروبولوجيا كنت حينها طالبا في سلك ماستر سوسيولوجيا التنمية المحلية، الكتاب أسرني بحيث وضعت طريقة تفكيري بالعالم تحت محك الاختبار، الكتاب معنون ب: "مجتمع الوفرة The Original Affuent Society" "لمارشال سالينز Marshall Sahlins".

يفحص المؤلف في هذا المنجز مجموعة من الافتراضات التي ترقد خلف المفاهيم الغربية وخصوصا من المتن الفيبيري من قبيل العقلانية والسلوك الاقتصادي ... وهو بذلك يتعمد الكشف عن التحيز المبالغ فيه وسوء الفهم الذي يطال المجتمعات المحلية والصغيرة هؤلاء كان يطلق عليهم اسم الصيادين جامعي الثمار فهذه المجتمعات هي مجتمعات ندرة وخصاص، يعيشون حياة بدوية أقرب إلى البدائية فهؤلاء هاجسهم الأساس البحث عن الكلاء في عملية ترحال، لكن الاعتقاد والقول بأن حياة هؤلاء حياة ندرة وفقر وحاجة هو رأي مجانب للصواب لأنه ببساطة لم يشيد حقائقه من الميدان وغير متكئ على ملاحظة دقيقة لهذه المجتمعات لذلك ذهب المؤلف للكتاب إلى اعتبار هذه الأحكام محدودة وقاصرة و مصطنعة إذ يوضح أن هذا النوع من الأحكام التي تعتقد أن الأهالي والبدو هم أناس يسود بينهم البؤس والجوع وهمهم النضال من أجل البقاء على قيد الحياة، إن أصحاب هذا الطرح وتحديدا التطوريين يجزمون أن حال هؤلاء ميؤوس منه وغير مرشح بالمرة لان يصير أفضل فهم خانعون خاضعون لإكراه البنية وبالنهاية هم لا يملكون خيار في نمط عيشهم، ومن خلال هذا المنظار الغربي وهذه الرؤية المنغمسة في ذاتيتها فإن حسب "سالينزSahlins " أن هؤلاء لديهم دوافع بورجوازية لكن مع أدوات تنتمي الى العصر الحجري القديم.

الواقع أن هذه الرؤية هي ذاتها تعرض لها مجتمعنا الدراسي الصيادة البحارة التقليديين تحديدا، هؤلاء يشتغلون في البحر ليس رغبة منهم في امتلاك ثروة مثلا فهم يعملون بجد و بأقل مجهود غرضهم تلبية احتياجاتهم واحتياجات ذويهم والواقع أن هؤلاء بإمكانهم العمل ولمدة أطول لكنهم لا يرغبون، ببساطة لأنهم غير محكومون بهواجس العالم البورجوازي وحتى في حالة فترات الراحة البيولوجية أو في حالة غضب البحر فإنهم لا يعملون ينتظرون قدوم الفرج ويلجؤون إلى الاقتراض والى توظيف استراتيجية القرابة، فالفقير في هذه المجتمعات ليس فقير المال وإنما فقير القرابة ،لذلك يخلص "سالينز" إلى حقيقة مفادها أن هؤلاء وأنا اعتقد في هذه السردية استنادا إلى ابحاثي الميدانية أن هذه المجتمعات التي توصف بالبدائية و التقليدية في العالم ليس لديهم سوى القليل من الممتلكات لكنهم ليسوا فقراء لأن الفقر ما هو إلا وضع اجتماعي وهو من اختراع الحضارة.

من جهة ثانية نستشف من خلال مقابلاتنا مع المبحوثين أن هناك ربما سوء التقدير وعدم إعطاء أهمية بالقدر الكافي لتحليل أوضاع هؤلاء من طرف الفاعلين الرسميين ومخططاتهم المعدة سلفا في مكاتب دراسات أجنبية ونخص بالذكر مخطط "اليوتيس halieutis" وهي استراتيجية طويلة الأمد تمتد ل 2030 للنهوض بقطاع الصيد البحري، في اعتقادنا ومن خلال معايشاتنا، إن هذا النوع من المعالجات لا يحضي بالقبول من فئات كبيرة في قطاع الصيد البحري وتحديدا التقليدي منه، فاستيراد مفاهيم من قبيل العقلانية ،التخطيط، التنافسية، المقاولة، النجاعة، كلها مفاهيم وردت في المخطط بالنسبة للصياد التقليدي وخصوصا نقابتهم في شخص كاتبها العام الذي أجرينا معه مقابلة يرفضون هذا النوع من المخططات والذي ينعته بمخطط البورجوازيين والاثرياء والذي يهدف إلى الاستثمار ويقصي بالمرة الحديث عن الصيد التقليدي يضيف الكاتب العام للنقابة أن التنمية لا يمكن النهوض بها بالمنطقة ككل ونحن نهمش شريحة اجتماعية لها وزنها .كما أكد على أن التنمية لا ينبغي اختزالها في بعد إقتصادوي وتقني ضيق وشدد على ضرورة استحضار أبعاد أخرى لا اقتصادية.

إن ما استلهمته من أراء وأفكار مهمة "لسالنز" حول القيم المجتمعية للبدائيين في دراسته، وكذلك استنتاجات وخلاصات عملي الميداني الذي امتد لسنوات في سلك الماستر والدكتوراه وكذلك بحث الاجازة في شعبة الانثربولوجيا، لم يعد معه موضوع "الوفرة" "والادخار" و" مراكمة الثروة " كلها مفاهيم لم تعد بتلك الأهمية التي كانت تحدثها في نفسي، وحتى انا لم أعد مطمئنا لافتراضاتي الخاصة حول دلالة المفهوم، أن الدرس الذي تعلمته من الكتاب ومن مكوثي بالميدان مع مجتمع الصيادين تعلمت منهما بوصفي طالبا باحثا في مجال السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا أن الأخيرة ترغمك على طرح الأسئلة والبحث عن المسكوت عنه والبحث في المعاني والدلالات التاوية خلف البنيات وتصرفات الفاعلين والأهم من هذا وذاك طرح الأسئلة عن كنه المفاهيم باعتبارها بوصلة تنير طريق الباحث في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية والأنثروبولوجيا تحديدا.

استنتاجات الدراسة الميدانية

نجمل أهم الاستنتاجات التي خلصت إليها دراستنا الميدانية فيما يلي:

- أولى الاستنتاجات هي أن مجتمعنا الدراسي هو مجتمع تقليدي وهذا الأخير من خلال دراستنا الميدانية والتاريخية تدل على أنه مجتمع دينامي عرف تبدل وتحول لكن هذا التحول لم يقد إلى التنمية المتعددة الأبعاد، هو مجتمع تحول من مجتمع قبلي إلى مجتمع له هوية جماعية محلية، لكن القبيلة ظلت حاضرة وبقوة تستدعى بين الفينة والأخرى للتوظيف، وهذا سبب كاف للرد على المقاربة الانقسامية التي تنطلق من سردية أن المجتمعات التقليدية معرضة للتفكك والزوال.

- نستنتج أن مجتمعنا الدراسي جماعة الصيادين مشكلة من مختلف قبائل الريف الغربي وحتى القبائل المجاورة نستنتج أن هذه الفئة استطاعت تشكيل هوية بحرية جماعية من خلال دفاعهم عن المشترك وتكريسهم لثقافة البحر في حدود، وهي وضعية ترسخت مع الاستعمار الاسباني الذي غرس ثقافة جديدة ونمط حياة جديد، حتى أن الساكنة ليخيل للمرء انه يعيش في جنوب إسبانيا وليس فوق التراب المغربي ومع ذلك ورغم هذا التحول، التقليدي يطفوا على السطح بين الفينة والأخرى مما يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الثقافة تموج في المجال والانسان يصطحبها معه أين ما حل وارت

- استنتج البحث أيضا أن معضلة استدامة الثروات البحرية في المنطقة هي في صلب اهتمامات الفاعل الرسمي، إلا أن سبل المعالجة لا تستحضر العنصر الثقافي كفاعل أساسي في التحليل و لا تشرك المهنيين والصيادين التقليديين في صياغة السياسات العمومية وهو ضرب لمفهوم المقاربة التشا ركية

- استنتج البحث الاقتناع التام لكل المهنيين بالقطاع بأن الثروات السمكية هي في طريقها للزوال والاستنزاف، وأغلبهم يطرحون علامات استفهام حول مستقبلهم الاقتصادي والاجتماعي.

- إنه وبالرغم من تشكل وعيً جديد متمثل في تجاوز الاعتماد على الدولة في تشغيل طاقات المجتمع نستنتج ان هذه التجربة التي تعتمد على الذات لا تخلو من نواقص استخلصناها من نقاشاتنا الدائرة وخصوصاً في المستوى التدبيري

- يتبين أن التنظيمات التقليدية كانت تتميز في مرحلة ما قبل الاستعمار بالتراتبية الاجتماعية وباحتكار السلطة من طرف فاعلين محليين فالسلطة موجودة في كل مكان في هذه المجتمعات، فقط على الأنثروبولوجي تتبعها وتحديد أين توجد، تبين لنا من خلال الدراسة أن مجتمع الريف الغربي لم يكن قط مجتمعا انقساميا بل تبث أنه مجتمع قبلي خاضع على الدوام للسلطة المركزية لكنه يتمتع بقدر مهم من الاستقلال الذاتي.

الهوامش:

[1] عبد الله حمودي الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية: خطوة في طريق تأسيس خطاب أنثروبولوجي مستقل، ضمن مجلة العمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد التاسع عشر – المجلد الخامس، اصدار المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2017، ص12.

[2] نوربرت إلياس، مجتمع الأفراد، ت، هاني صالح، دار الحوار، ط .1، سورية 2014، ص 10-11.

[3] Bahija Simou, les réformes militaires au Maroc de 1844 à 1912 Rabat, 1995, p124 126.

[4] وصف افريفيا، الحسن ابن محمد الوزاني الفاسي، النص العربي، ط الثانية 1983 ج.1ص.ص.306-323.

[5] Refass, M " l'organisation urbaine de la Péninsule Tangitane 1996

[6] J-L.Miége, le Maroc et l'Europe 1830-1894, Édition la porte, Rabat, 1960-1963, T, II p,184

[7] ميمون أزيزا، الريف زمن الحماية الإسبانية 1912-1956ت، د محمد حاتمي، د جمال حيمر، الفصل الثالث ص135

[8] الريف زمن الحماية، مرجع سابق ص 61

[9] الريف زمن الحماية الإسبانية، مرجع سابق، ص 327

[10] مقتطف من مقابلة مع أحد المبحوثين في 2025

[11] وخلال البحث والتحري الميداني تبين أن هذا المستجوب ينحدر من عائلة عريقة في الصيد كان جده ينشط مع الصيادة الاسبانيين.